المحاضرة الخامسة: التقديم والتأخير

عناصر المحاضرة:

تمهيد:

1-مفهوم التقديم والتأخير.

2-أهم الدواعي والأغراض البلاغية التي توجب التقديم والتأخير في الكلام.

3-أمثلة تطبيقية /أعمال موجهة.

عرض وتحليل:

تمهيد:

تنهض فاعلية الأداء للتقديم والتأخير عبر توظيف الأدوات اللغوية توظيفا فعالا ومتنوعا يغني التجربة الأدبية ويزيد من روعة النص.

ولا شك أن موضوع التقديم والتأخير من أكثر مباحث علم المعاني، وهو مشترك بين النحو والبلاغة، فقد تحدث عنه سيبويه في كتابه الموسوم "الكتاب" وأشار إليه في الكلام بوصفه ظاهرة فردية، وذكر أنه يأتي للعناية والاهتمام أو للتأكيد والتنبيه، وأنه يكون أحيانا لغير علة بلاغية.

ومن المؤكد أن سيبويه، وهو الذي جعل سلامة التركيب غايته، لم يكن ليهتم ببحث الأسرار الفنية لظاهرة التقديم والتأخير كمبحث البلاغيين لها، و لكن جمهور اللغويين منذ سيبويه كانوا على وعي بأن التقديم و التأخير: Permutation استثناء و خروج عن الأصل الذي تمثله القاعدة العامة في ترتيب وحدات التركيب في الكلام.

1-مفهوم التقديم والتأخير:

يعد التقديم والتأخير ظاهرة أسلوبية يعدل إليها عن أصل مفترض، وهو نوع من الإزاحة بين وحدات تركيب الكلام بين الجملة الفعلية والاسمية décalage.

وهناك من يرى فيها عدولا يعتمد على الاختيار، وهناك من يعدها نوعا من الاضطرار، وهو اضطرار تفرضه بعض القيود العروضية وموسيقى الشعر، أو المناسبات اللفظية.

ولكن عبد القاهر الجرجاني في كتابه الموسوم:" دلائل الإعجاز في علم المعاني" يناصر الرأي الأول، ويؤكد القيمة الأسلوبية وبعدها الفني في النص الأدبي، بقوله:" واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء و تأخيره قسمين، فيجعل مفيدا في بعض الكلام، و غير مفيد في بعض، و أن يعلل تارة بالعناية، و أخرى بأنه توسعة على الشاعر و الكاتب حتى تطّرد قوافيه، و لذلك سجعه، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة و لا يدل أخرى".

وقد عالج البلاغيون مسألة التقديم والتأخير بوصفها أحد أهم مظاهر العدول déviation في مستوى التراكيب وأدركوا مالها من قيمة فنية.

وإذا كان بعضهم قد نظر إليها على أنها ملجأ يضطر إليه لتلبية بعض المطالب الشكلية للأسلوب، فإن آخرين أدركوا البعد الفني لظاهرة التقديم والتأخير فتناولوها تناول من يرى فيها اختيارا حرا، يعمد إليه ابتغاء مطالب فنية وأغراض بلاغية وأسرار تعبيرية لا تكاد تتناهى، كما أنه مثّل بالنسبة إليهم عدولا écart عن الأصل الذي تمثله القاعدة أو السياق.

2-أهم الدواعي والأغراض البلاغية التي توجب التقديم والتأخير في الكلام.

2-1-تقديم ما حقه التأخير.

2-2-التشويق إلى المتأخر.

2-3-تعجيل المسرّة والمساءة.

2-4-تعجيل التبرك به.

2-5-تعجيل الأمان به.

2-6-تعجيل التلذذ به.

2-7-التعجيل بتعظيمه أو بتحقيره.

2-8-التخصيص.

أمثلة تطبيقية وعرض وتحليل:

1-تقديم ما حقه التأخير نحو قول الله تعالى:

(...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...) "فاطر28"

من المعلوم أن المقصود عليه مع (إنما) هو ما ختمت به جملة القصر، ففي قول الباري سبحانه وتعالى: (...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...) المقصور عليه هو العلماء، فليس هناك في الدنيا من هو أخشى لله تعالى وتحقيق العبودية له وحده مثل العلماء، فالخشية لله وحده مقصورة على العلماء دون أن تتعدى لغيرهم.

لذا كان التخصيص بتقديم لفظ الجلالة "الله" مفعولا به مقدما والعلماء فاعلا مؤخرا المقصور عليه فعل الخشية، وإذا استقريت (من الاستقراء) وجدتها أحسن ما تكون موقعا إذا كان الغرض بها التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها، على وجه التعظيم ومطلق العبودية له وحده لا شريك له.

ولعله من المفيد التأكيد على دواعي التقديم والتأخير البلاغية والجمالية التي يمكن إجمالها في الآتي:

2-التشويق إلى المتأخر إذا كان المتقدم مشعرا بغرابته، نحو قول أبي العلاء المعري:

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ*** حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ (من بحر الخفيف)

الشرح: التشويق إلى المتأخر، يعني الإنسان خلق من تراب، حيث يذهب الإنسان في تصوره كل مذهب.

3-تعجيل المسرّة أو المساءة بالمسند إليه المتقدم نحو: السعد في دارك أو النحس في دارك ونحو: النجاحَ نلته أو الرسوبُ أصابك.

4-تعجيل التبرك به، نحو:

اسم الله عليك، ونحو: المصطفى صلى الله عليه وسلم يفرح بزواره في روضته، و نحو قول حسان بن ثابت الأنصاري –رضي الله عنه- في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لَهُ هِمَمٌ لا مُنتَهى لِكِبارِها *** وَهِمَّتُهُ الصُغرى أَجَلُّ مِنَ الدَهرِ.

لَهُ راحَةٌ لَو أَنَّ مِعشارَ وجودِها *** عَلى البرِّ صارَ البرُّ أَندى مِنَ البَحرِ. (من بحر الطويل)

5-تعجيل الأمان به، مثل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

6-تعجيل التلذذ به، نحو: قول الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ *** وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ. (من بحر الكامل المجزوء).

7-التعجيل بتعظيمه أو بتحقيره:

فالأول: (التعجيل بتعظيمه) قول الله عزوجل:

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..." (سورة الفتح 29)

وأما الثاني: (التعجيل بتحقيره)، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة".

8-والتخصيص، تقديم ماحقه التأخير، نحو:

قول المولى تبارك اسمه:

"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (الفاتحة 5) وقوله عزوجل:" عليه توكلت وإليه أنيب" (هود 88).

وقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إِلى اللهِ أَشكو لا إِلى الناسِ أَشتَكي *** أَرى الأَرضَ تَبقى وَالأَخِلّاء تَذهَبُ. (من بحر الطويل)

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم (الله سبحانه و تعالى).

والتخصيص "...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..."

هنا قدم المعمول (المفعول به) على الفاعل، للعناية والاهتمام، أو تقديم ماحقه التأخير وهي من أمثلة قصر الصفة على الموصوف.

خاتمة:

وأما مفهوم التقديم والتأخير عند علماء البلاغة المحدثين ولعل الناقد البلاغي المصري الكبير عبده عبد العزيز قلقيلة في كتابه الموسوم:" البلاغة الاصطلاحية "، حيث يقول:" معلوم أن المسند إليه والمسند هما العنصران الأساسيان في الجملة العربية اسمية كانت أم فعلية، والأصل في الجملة الفعلية

أن يأتي الفعل أولا والفاعل ثانيا والمفعول به أو غيره ثالثا. والأصل في الجملة الاسمية أن يأتي المبتدأ (المسند إليه) أولا والخبر (المسند) ثانيا.

وكان المنتظر أن الكلام إذا جاء على الأصل يكون شيئا طبيعيا لا يحتاج إلى تعليل.

لكن الاعتبارات البلاغية -وهي جمالية-قد تجد لتقديم ما حقه التقديم ولتأخير ما حقه التأخير وجها أو أكثر من وجوه الحسن و الجمال، فتقوله بل تقرره.

كما تجد في جريان الكلام على خلاف الأصل (الإزاحة) أو مخالفة الرتبة المحفوظة (نحويا) دقائق بلاغية ومؤثرات أدائية فتقولها وأكثر من ذلك، ترغب فيها وتدعو إليها. وللفائدة، الإشارة إلى أن البلاغة العربية تعلل الأصل مثلما تعلل الفرع".

أعمال مواجهة:

الأسئلة: أجب عما يأتي مبينا الدواعي والأغراض البلاغية التي توجب التقديم والتأخير في الكلام، مع التعليل؟

1-قال المولى جل وعلا:" اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ..." (سورة النور 35).

2-ويقول في محكم التنزيل:" إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ". (الفاتحة 5).

3-قال محمد بن وهيب في مدح أبي إسحاق المعتصم (ت 227هـ):

ثلاثةٌ تشرقُ الدنيا ببهجتها *** شمسُ الضحى وأبو اسحاق والقَمَرُ (من وزن البسيط).

4-حدد مفهوم التقديم والتأخير عند عبد العزيز عتيق من خلال كتابه: في البلاغة العربية: علم المعاني، البيان، البديع.

الأفواج: 1، 2، 3.

إعداد وتقديم الدكتور: عبد الرحيم عزاب